الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا قام يصلي من الليل « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني ما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » اه

باب المقالات

الأمل وطلب المجد (*)

إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبئ عن سر عظيم، اختص الله به الانسان، ورفعه به على سائر الاكوان، ليبلغ به المقام المحمود، ويحوز ما أعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك، واصغ لمناجاة سرك، تجد في وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كليتها كما هو في آحادها تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعا : ليس من السهل على طالب المجد أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعرا في السبل، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه، ولا ينقص ميله . يقطع شعابا، ويعاني صعابا، حتى يرقى ذروة المجد، ويتسنم شاهق العزة، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على

(*) من مقالات العروة الوثقى منقولة من ج ٢ من تاريخ الاستاذ الامام

الوهضاء لوسبر الحكيم الخبير أعمال البشر ونسب كل عمل الى غاية العامل منه رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الامر والنهي كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يحله في قلوبهم محل الاعتبار حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ونافس أهلها في الجاه ولا يزال يتبع سيره ما دام حيا يخطر في بسيط الارض . ذلك لان الكمال الانساني ليس له حد ولا تحده نهاية وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية . سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه . يعده ثمرة حياته وغاية وجوده حتى انه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه ، أو عند يأسه والخوف من سلبه . أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لايؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهينه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت وان القذف أو الاهانة ما نقصت من طعامه ولا شرابه ولا خشنت مضجعه في مبيته . آلاف مؤلفة من الناس في الاجيال المختلفة والاجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلبا للكرامة والمجد . جل شأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب ولا يلين له مضجع الا أن يلحظ فيه ان ما نال منه أعلى مما نال سواه مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالاعلوية فيه كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعاني الانسان من التعب البدني وكم يقاسي من مشاق الاسفار وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات وكم يحتمل في الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخارا أو ليحفظ ما آتاه الله منه . ما أجل عناية الله بالانسان لا يعيش الا ليشرف فيشرف به العالم وكل لذة له دون الشرف فهي

وسيلة اليه بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحي الى ما يستطيع من المجد وفي نهاية الاجل يفارقها قرير العين بما قارب منه، آسف الفؤاد على ما قصر عنه .

ما هو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الآلهي ويخوض الاخطار في طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد وتذعن له بالاعتلاء وتلقي اليه قياد الطاعة يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته وكلمة المتصلين به والمتحدين معه في شؤون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الاولى . فما كان يحسبه طالب المجد عائدا الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها! تلك حكمة بالغة اذا نال الواحد من الامة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد نعم وهل نال ما نال الا بمعونة سائر الآحاد منها « ذلك تقدير العزيز العليم » . ماذا يستطيع الجاهد وحده وماذا يكسبه من سعيه ان لم يكن له أعضاء من بني قبيله فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة و يرقى الى ذروة السيادة فعليه أن يهيئ نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل ما يعد في العالم فضيلة وكمالا . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهام الالهي وما أشد ما تحتمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الامر الرفيع . ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الارواح كل صعب و يقرب كل بعيد و يصغر كل عظيم و يلين كل خشن و يسليها عن جميع الآلام ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة فضلا عن بذل كل نفيس والسماح بكل عزيز؟ هذا الباعث الجليل وهذا الموجب الفعال هو الامل .

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق في بهماء الكروب ، وعلم هاد في مجاهيل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها فترة ، ومستفز للهمم ان عرض لها سكون ، ليس الامل هو الامنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى و يعبر عنهما بليت لي كذا من الملك وكذا من الفضل مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش واللهو عما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يريد

أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة فيسوق اليه ما يهجس بخاطره بدون أن يصيب تعبا أو يلاقي مشقة . انما الأمل رجاء يتبعه عمل ويصحبه حمل النفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلاد ، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها ان الحياة لغو اذا لم تنفذ بنيل الارب فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذي لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون . وكما كان الميل للرفعة أمرا فطريا كذلك كان الامل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة . غير ان ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعيا للمزاحمات والممانعات فان كل واحد بما أودع في جبلته بطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر فكلٌّ طالب مطلوب ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الافراد عملا تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجادا شرفاء بما يأتون من أعمالهم ولكنهم تزاحموا في الأعمال كما تزاحموا في الآمال والاهواء ومسالكهم ضيقة ومشارعهم ضنكة فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد في هذين الخلقين الشريفين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الاخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ويحكمون على أنفسهم بالحطة، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ولا ينفرون من الاهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه اليهم من ذلك أيا كان فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام فيرضون بما ترضى به البهائم فلا يهتمون الا بحاجات بطونهم وفروجهم ثم يأتيهم يكونون همل وسوائب يرعون النبات ويتبعون مواقع الغيث ولكنهم وان تركوا

العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم فيكونون كالنمال الحمالة لا تستفيد مما تحمل شيئاً وظيفتها ان تسعى وتشق ليسعد غيرها و يستريح فيما لجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ثم لاينالون مما يعملون شيئاً . ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم (هذا الذى يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة فإن السائدين يشعرون بحكم البداهة أن هؤلاء أسقطوا انفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وايداعهم ما اودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ولنا على ذلك شاهد العيان فى الامم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب . . . .

ونظن أن يوجد أقوام أخر سامهم ساداتهم في الزمن السابق و يسومونهم الآن ما لاتسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .

عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطالب رفعة وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل والامل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان . بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله انما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وان قوته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر فاذا صادفته الموانع مرة بعد اخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الى قدرته فوجدها فانية، وقوته فرآها واهنة، فيعترف بوهنه، و يسكن الى عجزه، فييأس و يقنط، ويذل و يسفل، اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي .

أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته وتدين كل

سطوة لجبروته الاعلى وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتغتال آماله غائلة القنوط فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا في مدافعتها معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ولا تدركه السآمة لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقي قيادهم الى الاذلاء وان يدك الجبال ويشق البحار ويمكن الضعفاء من نواصي الاقوياء — وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار — فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الاولى والآخرة وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته ان يقنط وييأس ولهذا اخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » وبما حكى من قول نبيه ابراهيم « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ومن اين يطرق اليأس قلبا عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة .

لهذا نقول ان المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ان يقنطوا من رحمة ربهم في اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ولا يسوغ لهم ايمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا بالضيم ويتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الامم فان لهم ملوكا عظاما ولا يزال في ايديهم ملك عظيم على بسيط الارض وان من الحق ان ان ابواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وان روح الله فاتحة عليهم وما يلزمهم سوى ان يستنشقوها ، والفرص دائما تمد ايديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول الا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم فأي

موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يترقبون من الحياة ان كانت في ذل واهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ يطمئنون وهم بين اجنبي حاكم وبغيض شامت ومفتخر عليهم ومشنع دني ومعير خسيس يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة في عداد الامم ؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات أينسون انهم كانوا الاعلين في الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ، ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض ؟ ان كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ؟ لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على ارواحهم ، بلى ان قوما شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الامر في مواقع مختلفة من الارض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة الا ان أملنا في بقية المسلمين ان يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم ليتمكن الجميع من نصر الله « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

انحطاط المسلمين وسكونهم (*

وسبب ذلك

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

ان للمسلمين شدة في دينهم وقوة في ايمانهم وثباتا في يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وان في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ومما

*) من مقالات العروة الوثقى منقولة من ج ٣ من تاريخ الاستاذ الامام